وزارة التعليم و البحث العلمي

جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم العلوم التربوية و النفسية

ميدان علم النفس الفسيولوجي

المادة : علم النفس الفسيولوجي

المرحلة : الثالثة

اسم التدريسي: م.د علا رافع

ميدان علم النفس الفسيولوجي

وعلاقته بسائر ميادين علم النفس

يدرس علم النفس في مجموعه كافة أنواع النشاط الصادرة عن الإنسان بالنظر إليها نظرة كلية شاملة. وعلم النفس هو علم حديث نسبيا، كان إلى قرابة قرن من الزمان أحد فروع الفلسفة، شأنه في ذلك شأن كافة العلوم الطبيعية التي كانت هي أيضاً فيما مضى فروعاً من الفلسفة، واستقل كل واحد منهما بموضوعه شيئاً فشيئاً، فكانت الفلسفة والعلوم في العصور القديمة والمتوسطة كلا مترابط الأجزاء، ثم أخذت العلوم تنفصل عن الفلسفة، كما أخذ كل علم ينحصر في ميدان بحوثه الخاصة. وكان هذا الانفصال أمراً طبيعياً ؛ نظراً لتشعب فروع العلوم واتساع نطاقها، بحيث أصبح من المتعذر على شخص واحد أن يلم بجميعها، ومن هنا نشأت ضرورة التخصص لا في علم دون سواه فحسب، بل في فرع من فروع علم واحد. وأود أن أشير هنا إلى أن هذا الانفصال ليس معناه انفصال الحقائق عن الأوهام ؛ فإن للفلسفة موضوعها الخاص وبحوثها الخاصة، التي تسفر عن حقائق لا تقل يقينيتها عن يقينية الحقائق العلمية. وإن للفلسفة بجانب موضوعها الجوهري، هي تأويل النتائج التي وصلت إليها مختلف العلوم ومعالجتها من وجهة نظر كلية عامة. ومما هو جدير بالذكر أن الذين نهجوا هذا المنهج، ومن اتخذوا نتائج العلوم المختلفة موضوعاً لتفكيرهم الفلسفي ليسوا جميعاً من الفلاسفة، بل إن كثيراً منهم كانوا من العلماء أمثال نيوتن وكونت وأينشتين. وليس بخاف أن بعض الاكتشافات العلمية الكبرى قد تحققت، بفضل نقد فلسفي ومنهجي مهد لهذه مهمة أخرى: الاكتشافات وقد أسهبت في الإشارة إلى موقع العلوم من الفلسفة ؛ حتى لا يظن أن هناك قطيعة بين العلوم والفلسفة، وحتى لا يظن كذلك أن الجدل الفلسفي الدائر حول علم النفس وحول موضوعه يمنعه من أن يكون علماً بالمعنى العلمي الدقيق، وينبغي لنا قبل أن

نتناول العلاقة بين علم النفس وعلم النفس الفسيولوجي أن نحيط بموضوع علم النفس عموماً، وما يقال فيه وكذلك بفروع دراسته. والحقيقة أن هناك صراعاً في علم النفس حول موضوع (وحدته) وحول موضوع منهج البحث فيه ؛ مما أدى إلى وجود عدة نظريات مختلفة فيما بينها، ويمكننا أن نجعل موضوع الصراع في عبارة واحدة هي علم الطبيعة، أم "علم الإنسان" فبعض العلماء يرون أن الشكل الأمثل المنهج العلمي هو ما تبعته العلوم الطبيعية من أخذ بالتجربة المضبوطة وشروط تحقيقها، وأن على علم النفس أن يأخذ بهذا المنهج لكى يصير علماً طبيعياً مضبوطاً، ويرى البعض الآخر أن مفهوم الدقة العلمية المطلوبة لدراسة أحوال الإنسان يختلف عن مفهومها في العلوم الطبيعية، فالنمط المنهجي المتبع والذي يحاول محاكاة علوم الطبيعة في علم النفس، إنما يقضى على فهم الإنسان بما هو إنسان، ويغفل الجوهر الإنساني الذى يختلف عن بقية المواد التي تعالجها العلوم الطبيعية. فنجد النزعة الطبيعية تعتبر الوقائع السيكولوجية أشياء، ومثالها المدرسة السلوكية عند واطسن، التي ترى أن علم النفس ينبغي أن يستند فحسب إلى ملاحظة السلوك الخارجي مستبعداً الاستبطان (منهج تأمل الذات) ودون ما اعتبار للشعور. أما النزعة الإنسانية فتسلم بأن الوقائع السيكولوجية هي حالات شعورية أو تجارب حية أو تعبيرات نقرأ فيها التجارب الحية عند الآخرين، أي أن علم النفس في رأيها يتركز، لا على السلوك المتاح للملاحظة، وإنما على الكيان الحى، أو الوجود كما يعيشه الشخص.

كذلك تميل النزعة الطبيعية إلى إيجاد قوانين جزئية للحالات الإنسانية، تتجمع في قوانين أكبر، "فالفعل المنعكس الشرطي"، مثلا سلوك بسيط وأولى، "والعادة" تسلسل أفعال منعكسة شرطية والشخصية، جهاز من العادات، أما النزعة الإنسانية فترى أن الكل سابق على الأجزاء، فلا يمكن أن تعزل واقعة سيكولوجية بطريقة عن جملة علاقات الكائن الحى بالبيئة،

فالشخصية وحدة كلية تفسر الوقائع الجزئية في ضوئها. وتميل النزعة الطبيعية في علم النفس إلى إقامة قوانين، شبيهة بقوانين مصاغة ما أمكن في علاقات كمية، تسمح بتفسير الظواهر ؛ أي تسمح بردها إلى عدد قليل من العناصر المكونة الأولية. ويمكن ترجمة خصائصها الأساسية في منحني كما هو الشأن مثلا في قوانين التعليم. أما علم النفس الإنساني النزعة فيستند لا إلى القوانين، وإنما إلى أنماط مثالية، إلى نماذج تعين على الفهم أكثر مما تعين على التفسير، فليس المطلوب عندها هو تفسير تفاعل ما (كما في الكيمياء) وإنما فهمه كيف تم وتحت أي ظروف، ولذلك فإن هذه الدراسة لا يمكن أن تغفل الجوانب الجسمية، التي تعبر بها الحياة. عن نفسها وأخيراً فإن النزعة الطبيعية بتمسكها بالمعطيات المادية المتاحة للملاحظة الموضوعية لا تسلم بجوهر للحياة النفسية غير عضوي، في حين أن النزعة الإنسانية تولى اهتماماً كبيراً للكشف عن مجاهل الطبقات العميقة للنفس واللاشعور.

وجاء في مقدمة ترجمة كتاب أزمة علم النفس المعاصر، أنه لم يعد في الميدان من محاولات إدخال علم النفس إلى حظيرة العلوم المضبوطة سوى تيارين، هما : تيار القياس السيكولوجي في موضوع الشخصية، وتيارات نظريات التعلم. وعلى أي حال.. فإن ما يهمنا في الأمر هو أن كافة الاتجاهات والنظريات تسلم بوجود أساس بيولوجي للنشاط والسلوك والفكر الإنساني، لا مناص من دراسته لفهم أو تفسير ما يصدر عن الإنسان، وإن كانت كل مدرسة تختلف في مدى ا الأهمية التي تعلقها عليه. ونحن أميل إلى النزعة الإنسانية، وإن كنا نرى أن التشابك بين النزعة الطبيعية والنزعة الإنسانية هو لحظة من لحظات تاريخ الفكر، وناتجة عن جهود العلماء في التسابق للوصول إلى الحقيقة. وأن علم النفس سائر في طريقه إلى الوحدة النظرية، شأنه في ذلك شأن بقية العلوم ؛ فيرى علماء النفس أن السيكولوجيا تحتاج

بالتأكيد لمعارف مستمدة من الفسيولوجيا، وهذه نقطة الالتقاء بين الفسيولوجيا والسيكولوجيا، على أن هذه المعلومات تتطور وتزداد كل يوم بازدياد اكتشاف حقائق جسم الإنسان ومجاهله، ولذلك.. فإن مجال الالتقاء بين هذين العلمين يزداد كل يوم؛ خاصة في ميدان الطب العقلي والنفسي وعلم النفس لتعرضه لنشاط الإنسان ينقسم إلى فروع عديدة، ابتداء بعلم نفس الحيوان، فعلم نفس الطفل، وعلم النفس التربوي، وعلم النفس الاجتماعي، وعلم النفس المرضى، وعلم النفس الفسيولوجي، وسيكولوجيا الجماليات، وعلم نفس الفروق الفردية بين الأفراد وكذلك بين الجماعات، وعلم النفس الإكلينيكي، وعلم النفس المهني والصناعي... ولها كلها تخصصات أخرى دقيقة في داخلها. ويسلم علماء النفس كما يسلم الأطباء بأن ما يطلق عليه – اصطلاحاً – النفس هو شيء خاضع للبحث العلمي ؛ فهم لا يهتمون إلا بالوقائع الموضوعة ؛ أي كل ما يمكن دراسته وإخضاعه لمناهج الفهم والتفسير، سواء كان موضوع علم النفس هو السلوك الملاحظ أو الحالات الشعورية، أو الأعماق اللاشعورية للفرد أو الأفعال المنعكسة الشرطية أو العلاقة بين الذات والآخرين، وسواء كان يبحث في نفسية الطفل أو الفروق الفردية أو الحالات المرضية أو علم النفس الصناعي أو التربوي. فإن الأساس في قيام الإنسان بنشاطه أو الأساس في نفس الإنسان هو جسمه، ولا نعنى بقولنا هذا أن على علم النفس أن يبدأ من الفسيولوجيا ؛ فالظاهرة النفسية شيء مختلف عن الظاهرة الفسيولوجية، وقد يقول قائل مادام علم النفس يدرس ما يصدر عن الانسان من نشاط يتبلور في نهاية الأمر في سلوك جسماني محدد، وما دام علم يصبح وظائف الأعضاء يدرس في نهاية الأمر سلوك أعضاء جسم الإنسان، فالأوفق أن الاثنان شيئاً واحداً. ونواجه هنا إحدى القضايا الأساسية لعلم النفس، والسمة الأساسية التي تميزه عن الفسيولوجيا وعن علم النفس الفسيولوجي، فلنتدبر إذا أنواع السلوك التالية : إذا صفر أحد النظارة أثناء مشاهدة مسرحية

ما.. فإن سلوكه الفسيولوجي في هذه اللحظة محصور في حركة الفم والشفتين، ولكنه من الناحية النفسية تعبير عن عدم رضائه عما يرى. كذلك إذا طلب الطبيب من المريض إخراج لسانه.. فإن الأمر يختلف إذا أخرج المريض لسانه، عندما يدير الطبيب ظهره، الفرق بين السلوكين الفسيولوجي والسيكولوجي يتلخص في المعنى. السلوك الفسيولوجي دلالة محصورة في القيام بوظيفة ما، أما السلوك السيكولوجي فله دلالة إنسانية، له معنى لا يفهمه إلا الإنسان، فهناك مستويان للسلوك : المستوى الفسيولوجي، مستوى أداء أعضاء الجسم لوظائفها حتى يظل الجسم محتفظاً بحيويته واستمراره، والمستوى الرمزي مستوى خلق الرمز واستعماله والاستجابة له، وهذه هي ا المميزة، والتي لا يشارك الإنسان فيها أي كائن آخر. ومن هنا إلحاح أصحاب النظريات الإنسانية في علم النفس على المعنى والدلالة. ويرى أصحاب مدرسة التحليل النفسي (فرويد وأتباعه) أن السر في فهم الأعراض المرضية يكمن في الكشف السمة الإنسانية عن معناها. الفرق بين العلمين إذا أن دلالة السلوك تختلف لدى كل منهما، فيدرس علم النفس السلوك من حيث دلالته الرمزية ومن حيث صدوره عن الإنسان ككل، أما علم وظائف الأعضاء فيدرس السلوك الجزئي من حيث دلالته المادية والفسيولوجية البحتة علم النفس بالنسبة لنا إذا هو العلم الذى يدرس السلوك من حيث دلالته الرمزية، من حيث هو علاقة بين الذات والآخرين، أما علم وظائف الأعضاء فهو الذي يدرس مختلف الوظائف الجسمية من حسية حركية وهضمية وغذائية.. إلخ مجال علم النفس الفسيولوجي بالتالي هو العلاقة بين أجهزة الجسم والنشاط النفسي، وأثر الحالات النفسية في الجسم. ويصبح. ونحن نميز في السلوك بين ما يعرف بالسلوك الجزئي والسلوك الكلى، فيشير السلوك الجزئي إلى الحركات العضلية المعزولة أو الإفراز الغددي، ونحن نسمى هذا السلوك جزئياً لأنه مجتزأ ومعزول. أما السلوك الكلى فهو يشير على النقيض إلى السلوك المنتظم في تتابعات أو

أنماط ذات معنى، في نشاطات تشبع حاجات الكائن وتقربه من أهدافه. ومن الواضح أنه لا يمكن الفصل بين النوعين؛ فالسلوك الكلى المتمثل في الحصول على الغذاء يتضمن عمليات المضغ والهضم والابتلاع الجزئية، وعلم النفس يدرس بالطبع السلوك الكلى، ولا غنى له في الوقت نفسه عن دراسة السلوك الجزئي. السلوك الكلى هو سلوك الفرد في البيئة الخارجية والاجتماعية، أما السلوك الجزئي فهو سلوك أعضاء وأجهزة الجسم الداخلية والخارجية. ومن المعروف أن سلوك الفرد الكلى يعتمد على إدراكه لما حوله، ذلك الإدراك الذى يتم عن طريق الحواس، ولا شك أن سلامة الجهاز العصبي أساس لعملية الإدراك والتفكير، والإدراك يبدأ في المستوى الحسي الفسيولوجي ولكنه لا يكتسب معنى إلا في المستوى السيكولوجي. فضوء إشارة المرور الأحمر ليس له القدرة على إيقاف السيارة، فهو كضوء يؤثر في شبكة العين وهذا سلوك فسيولوجي، أما إيقاف العربة فهو سلوك سيكولوجي عبارة عن استجابة الكائن للضوء الأحمر ؛ أي استجابة المنبه حيث هو معنى أو رمز. علم النفس الفسيولوجي يقع إذا على الحدود الفاصلة بين علم النفس، وعلم وظائف الأعضاء، فيقدم علم النفس الفسيولوجي الأساس الفسيولوجي لأنواع السلوك المختلفة ؛ بحيث يكتمل فهمها، ويقدم تعلم وظائف الأعضاء تفسير أنواع السلوك، التي لا تفهم إلا في ضوء المعنى العام للسلوك الإنساني. وتستفيد كافة فروع علم النفس من دراسات علم النفس الفسيولوجي، ولعل الدرس الأول الذى نتعلمه هو أن السلوك لا ينفرد بتحديده عوامل البيئة المحيطة بالفرد، ولعل موضوع الغدد الصماء والهرمونات يعتبر من أهم الأمثلة على تأثير العوامل الفسيولوجية في السلوك.